الرسول
صلى الله عليه وسلم
في الأدب العربي الحديث

بقلم

د. فؤاد أحمد صبره

مدرس الأدب والنقد

كلية اللغة العربية بأسيوط

— ١ —

١ ــ عندما نتحدث عن الرسول ــ ﷺ ــ فى الأدب العربى القديم نجد فرعين ناضرين : نجد المدائح النبوية فى الشعر ، ونجد أيضاً السيرة النبوية فى النثر ، لأن السير تعد فرعا من فروع الأدب من حيث منهج العرض ، وذلك على الرغم من المادة التاريخية للسيرة ، بمعنى أن السير التى تعرض مادتها عرضا فنياً أو موضحا بالشعر وتفتت المادة التاريخية إلى مواقف من الحوار يمكن تصنيفها فى باب النثر الأدبى تحت عنوان : السير والتراجم .

ومعنى هذا أن الرسول ــ ﷺ ــ قد أثر فى أدب التراث : فتناول أدب التراث الرسول من زاويتين : الحياة بما فيها من تجارب وقيم ثم المديح وقد أفرد له الشعر فصلا خاصاً .

٢ ــ وعندما نريد الحديث عن الرسول ــ ﷺ ــ فى الأدب العربى الحديث يجب أن ننظر إلى الفرعين السابقين ، ونحاول أن نتتبع اتجاهاتهما .

إلى أى حد استمر فرع السير فى العطاء وما الجديد فيه ؟

وإلى أى حد استمر فرع المدائح النبوية ، وماذا جد فيه بحكم طبيعة العصر ؟

ومن خلال هذين السؤالين يمكن أن تتسع الرؤية فى والواقع أن الشعر العربى قد ازدهر ازدهاراً واضحاً فى ثلاث فترات :

— ٢ —

الفترة الأولى : فترة الدعوة الاسلامية نفسها ، ومدائح الأعشى وكعب بن زهير وحسان بن ثابت وغيرهم مشهورة .

وكان الرسول — ﷺ — فى تلك المرحلة يوجه الشعراء إلى الدفاع عن العقيدة ورد هجوم المشركين فى فترة صراع بين الاسلام والشرك ، نكون أو لا نكون ، وقد قام الشعر بدوره بوصفه سلاحاً من أسلحة الدعوة ، فكان كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وعبد الله بن جحش يردون على شعراء مكة أمثال ابن الزبعرى وضرار بن الخطاب ويرفعون سلاح الكلمة البليغة .

وقد سجل « ابن هشام » فى فترة التدوين ، سيرة الرسول — ﷺ — وتعد هى والسيرة التى بنى منها « ابن سعد » الجزأين الأولين ، من كتاب الطبقات الكبرى وبعض كتب المغازى ، أساساً للمعلومات المقررة عن حياة رسولنا — ﷺ — .

والفترة الثانية : هى فترة الحروب الصليبية تكون أو لا تكون أيضاً . حيث عادت المدائح النبوية وعلى رأسها بردة ابوصيرى وشروحها وتضمينها ومعارضتها ونشأ فن البديعيات ومن أشهره

بديعية « ابن حجة الحموى » التى سماها مع شرحها « خزانة الأدب »(١) كما ظهرت دواوين بكاملها فى مدح الرسول ـ ﷺ ـ(٢) .

وألف « ابن الجوزى » فى سيرة الرسول ـ ﷺ ـ واتجه كتاب « الدلائل » أثال « أبى نعيم » و « البيهقى » الى إثبات أكثر ما يمكن من المعجزات وربما كان العالم الاسلامى فى حاجة الى ما يشبه المعجزة لينتشله ، وكان ظهور هذين الاتجاهين عودة الى النبع المحمدى وقت الشدة أو الذروة فى الجهاد والأمان النفسى .

أما الفترة الثالثة : فهى العصر الحديث وهو عصر الأكبر نكون أو لا نكون مرة أخرى ، ولكن الغزوة المعاصرة استعمرت الوطن الاسلامى مدة من الزمن ولم يبعد قبضتها عن عنقه إلا بشق الأنفس ، ومازالت القبضة على اقتصاده وفكره يحاول الخلاص منها ، ولذلك تعود المدائح النبوية قوة دافعة من جديد وتعود السيرة النبوية مثلا أعلى وقدوة يتبعها السائرون وكما ظهرت البديعيات باعتبارها تجربة جديدة فى المدائح النبوية ، كان لابد أن نتوقع ظهور لون جديد أيضاً بحكم التطور الفنى المعاصر .

---

(١) البديعيات : ان تكون القصيدة فى مدح الرسول ـ ﷺ ـ ولكن كل بيت من أبياتها يشير الى فن من فنون البديع ، وابن حجة الحموى توفى ٨٣٧ هـ ـ أخباره مفرقة فى كتابه « خزانة الأدب » طبع بمطبعة بولاق سنة ١٣٣٧ هـ .

(٢) مثل « اهنى المنائح واسنى المدائح » للشهاب محمود ، « بشرى اللبيب بذكر الحبيب » لابن سيد الناس اليعمرى .

أولا ــ الرسول صلى الله عليه وسلم فى الشعر العربى الحديث :

منذ ظهر « البارودى » فى العصر الحديث ، والشعر يعرف طريقه الى التقدم ويأخذ نصيبه من القوة والازدهار ، فقد استطاع « البارودى » أن ينقذه من عثرة الأساليب الركيكة ، وأن يرد إليه المعانى التى افتقدها ، وأن يجعله متنفسا حقيقياً لعواطف ومشاعر أمته وما ألم به وبها من أحداث وخطوب ...(٣) .

وإذا كنا نعتبر « البارودى » رائد الشعر العربى الحديث ، فينبغى أن يكون نقطة انطلاقنا فى المدائح النبوية المعاصرة أيضاً ، وليس معنى هذا أن الشعر العربى فى القرن السابق على « البارودى » قد خلا من المدائح النبوية وإنما معناه أن تلك المدائح سقطت فى الزخرف والضعف الفنى الى حد بعيد(٤) .

والفارق واضح بينها وبين « ميمية البارودى » ومطلعها :

يا رائد البرق يمم دارة العلم
واحد الغمام إلى حى بذى سلم

---

(٣) يراجع : « من ادبنا المعاصر » د. مصطفى محمود يونس ص٦٢ ، سنة ١٩٨٤ م .

(٤) يراجع على سبيل المثال : ميمية الساعاتى التى حشد فيها مائة وخمسين نوعا من انواع البديع ومطلعها يشير الى براعة الاستهلال :

سفح الدموع لذكر البين والعلم
أبدى البراعة فى استهلال بدم

وقد ضمنها سيرة الرسول ـ ﷺ ـ منذ ولد الى أن توفى وبناها على سيرة « ابن هشام » كما يقول فى مقدمة القصيدة(٥) . وإن كان من الواضح أنها معارضة لبردة البوصيرى

أمن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم(٦)

ولكن متابعة السيرة ومعارضة البردة فى نفس الوقت قد أضعفا من القيمة الفنية للمطولة وجعلاها أقرب إلى السرد التاريخى وإن امتازت بوصف الغزوات وصفا دقيقا حياً وذلك يرجع الى طبيعة « البارودى » الذى خاض غمار الحروب ، ومن الواضح أنها قيلت بعد الاحتلال ولذلك جعل عنوانها « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » . ثم يجىء أمير الشعراء أحمد شوقى فيعارض بردة « البوصيرى » أوائل القرن العشرين بقصيدته المشهورة :

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم(٧)

ويسميها « نهج البردة » ويضمها الى بقية مدائحه النبوية ، ولشوقى غير البردة ، ذكر المولد ، ومطلعها :

سلوا قلبى غداه سلا وتابا
لعل على الجمال له عتابا(٨)

---

(٥) انظر : كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص٣ .
(٦) ديوان البوصيرى ـ ص٢٣٨ ، محمد سيد كيلانى ، مطبعة الحلبى بمصر ، والمدائح النبوية لزكى مبارك ص٢٢٣ .
(٧) ديوان شوقى ص٦١٧ ـ د. أحمد محمد الحوفى ـ الجزء الأول ، دار النهضة ١٩٨٠ .
(٨) المرجع السابق نفسه ص٦٠٦ .

ثم الهمزية النبوية ومطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء(٩)

إن دراسة المدائح النبوية بصفة عامة توضح أن البوصيرى قد وضع أساسها الذى لم يستطع الشعراء الافلات منه ، بدأ بالغزل وليس غريباً أن يبدأ بالغزل فقد بدأ به من قبل كعب بن زهير وهو تقليد فنى موروث لبناء القصيدة .

ولكن البوصيرى يتخلص من الغزل الى الحديث عن النفس التى لا تود أن ترتدع على الرغم من نذير الشيب ، ويطيل لومه للنفس التى اكتفت بالفروض وقنعت ، ولم تهتم بالسنة المحمدية الاهتمام الواجب ، ومن هذا المدخل يبدأ حديثه عن الرسول — ﷺ — فيذكر الظواهر الكونية التى صاحبت مولده ، كتصدع إيوان كسرى ، كأنه رمز لتصدع الظلم ، أما خمود النار فرمز لخمود الشرك ، إيذاناً بمولد الحق ، وقد تبعها كل شعراء البديعيات والمعارضات لبردة البوصيرى ، وإن كانوا جميعاً قد أبرزوا بصفة خاصة ، المعجزة الباقية وهى القرآن الكريم(١٠).

ومن الواضح أن البوصيرى ومن تبعه قد ثاروا بالسيرة النبوية ، فتناولوا الاسراء والمعراج باقتضاب حيناً وباطناب حيناً آخر ، باعتباره التكريم الأكبر للرسول ، والهجرة باعتبارها الخطوة الحاسمة فى تاريخ الدعوة ، والجهاد من أجل العقيدة ، ولكن شوقياً يقف عند الجهاد ليعرض رؤيته فى قضية انتشار

---

(٩) المرجع السابق نفسه ص٥٩٧ .

(١٠) يراجع « المدائح النبوية فى الأدب العربى » زكى مبارك — مطبعة دار الشعب ، الفصل التاسع بعنوان : « عناصر البردة » .

الاسلام بالسيف ، وهى قضية معاصرة أثارها المستشرقون ، كأن المسلمين قد نسوا ما صنعه أهل أوربا بأندلس العرب ، وقد فند مفكرو المسلمين هذه الدعوى على أساس استحقاق الكافرين العقاب من الله لهم فى الدنيا والآخرة ، وأن الأنبياء السابقين الذين ورد ذكرهم فى العهد القديم قاتلوا الكفار ، وإن الجهاد فى الاسلام لا يعنى الاكراه على الدخول فى الاسلام ، وأن الجهاد فى الاسلام يمتلىء بصور الرحمة التى لا مجال للموازنة بينها وبين وحشية الحروب الدينية الأخرى(١١) . ولذلك نحس انفعال « شوقى » فى تناوله لهذا الاتهام:

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاء والسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفوا كل ذى حسب
تكفل السيف بالجهال والعمم

والشر إن تلقه بالخير ضيقت به
ذرعاً وإن تلقة بالشر ينحسم

سل المسيحية الغراء كم شربت
بالصاب من شهوات الظالم الغلم

طريدة الشرك يؤذيها ويوسئها
فى كل حين قتالا ساطع الحدم

---

(١١) راجع « الرسول لسعيد حوى » ص٣٨٧ ، وأيضا « نهج البردة » ص٨٦ وما بعدها احمد شوقى ، شرح وتعليق سليم البشرى .

لــولا حمــاة لهــا هبــو لنصرتهــا

بالسيف ماانتفعت بالرفق والرحم(١٢)

ومن الطبيعى أن تكــون الخاتمة واحــدة فى أغلب القصائد ، لأن الهدف واحــد من المدائــح النبوية ، يتلخص فى طــلب الشفاعة له وللمسلمين عند بــارىء الخــلق • معنى هــذا أن المدائح النبوية ظلب موصولة مستمرة قــروناً طويلة ، تحمــل اضــافة أجيال ورؤيــة أجيــال : وعلى الرغــم من خفــوت صوتها حينــاً ، إلا أنهــا بقيت قــادرة على العطــاء تنبض بالحيــاة فى فتــرات الشــدة ، تمنــح الاحساس بالأمــان وتكمن فيهــا قــوة دفــع كبــيرة بمــا تقــدمه من قيــم سامية ومثــل عليــا نحن فى أشــد الحاجة اليهــا •

فالعــودة الى نبــع الاسلام الأول وأصوله ، هى المــلاذ من التخبط الفــكرى ، وفى ذلك يقــول « أحمــد محــرم » :

ســن النبى لنــــا أيــام هجــرته

من صادق العزم شرعاً غير مجهــول

مضى على الحــق لم تعصف بهمتــه

ريــح الضــلال ولم يحفل بتهــويل

والنفس تغلب إن صــحت عزيمتهــا

فتك الجيوش وتدمير الأساطيل(١٣)

---

(١٢) ديوان شوقى ص٦٢٨ ، وفى الأبيات : العمــم العامة العــلم ، الثــائر المهتــاج ، الحــدم : شــدة احتراق النــار ، الرحــم : العطف والرقــة . وبــه تفــرد شوقى بــرده على الذين زعمــوا أن الاســلام انتشر بحــد السيف ردا مفحمــا .

(١٣) ديوان أحمــد محرم ص١٩٥ ، مطبعة الفتوح الجديدة بدمنهور ١٩٢٠ ، وايضــا المجتمع العربى الاسلامى ج ١ ص٣٤٩ ، دار المعارف ١٩٦٧ عبد الحميد بخيت .

ويدور حـول معنى الأبيات السابقة كثيرون من الشعراء أمثال : محمـد مصطفى المـاحى ، وبدوى الجبـل ، وعمـر أبو ريشـة .. وغـير هؤلاء من الشعراء الذين نقبـح أكثرهم فى النصف الأول من القـرن العشرين ، فخـلال تلك الفتـرة حدثت أحداث جسام ، أهمها الغـزوة الصليبية الثانية أوائـل هـذا القـرن التى انتهت باستعمار الوطن الاسلامى ، ثم الهجـوم على الاسـلام وعلى رسوله من دوق داركـور وهانوتو الفرنسى وكـروس الانجليزى ، ولذلك كان الـرد من محمـد عبـده ورحمـة الله بن خليـل الهندى فى كتابة « اظهار الحـق » ، وردت المؤيـد على مطـاعن كرومر فى مقـالات(١٤) . ردا شافياً تناولوا فيـه إقـامة الحجـة على هجوم المستشرقين عن طـريق تنـاول أخـلاق الرسول وكمـال شريعته واتصاره وحاجـة النـاس إليـه والى شريعته ومعجزاته وتبشـير الأنبيـاء بـه .

وقـد ركـز الشـاعر المعاصر على عنـاصر معينـة من السيرة النبوية ، كـأنه يـرد هـذه الاتهامات إلى النحـور : وقـد ركـز « أحمـد محـرم » فى رده على اتهـام يلصق ـ دائمـاً ـ بالاسلام والمسلمين ، وهـو أن الدين الاسلامى دين تواكـل وكسـل ، يطبـع معتنقيه على الخمـول ، يقـول فى رده على « كرومـر » :

زعمـت الدين والاسـلام جـاءا
بمـا يشـقى حيـاة المسـلمينا

أديـن اللـه يأمـرنا بجهـل
ويوجـب أن نـذل ونسـتكينا ؟!

---

(١٤) جريدة المؤيد على يوسف العـدد ١٤٨ فى ١٩٠٧/٤/٢٤ م ، والدكتور / احمـد شلبى مجموعة مقالات تحت عنوان : « محمد نظـرة عصرية » القاهـرة دار الهـلال ، يفنـد فيهـا دعاوى أعـداء الاسلام وأباطيلهـم .

سـل الأحيـاء والمـوتى جميعـاً
أكنـا أمـة مستضـعفينا(١٥)

والشعر العـربى الاسلامى فى دول الخليـج ، لـه بصـمات واضـحة فى الاتجـاه اسلامى ، ويعـد نموذجـاً من نمـاذج الشعر الحـديث ، ولا أدعى أن الشـعر العربى الاسلامى فى الخليـج لـه مذاق خـاص ، ولكن يمثـل شعلة متوقـدة نجـد نورهـا فى ديوان « خـالد فـرج » الشـاعر الكويتى ، وفى ديـوان « عبد الرحمن المعـاودة » الشاعر القطرى ، « وأحمـد محمد الخليفة » الشـاعر البحرينى • وأحمـد محمد الخليفة شـاعر رومانسى ولذلك نجد المذاق الرومانسى فى شـعر المولد النبوى • ونقصـد الشعر المغموس فى وجـدان الشـاعر الهامس ، الموسيقى المجنـح الخيـال •

وإذا كان شوقى يبـدأ قصيدته قـائلا : ولـد الهـدى فالكائنات ضـياء ، فـان شـاعر الخليج « الخليفة » يبـدأ بمقـدمة وجدانية كلهـا تعبـير عن رؤى الشـاعر الرومانسى :

عانقى المجـد واهزجى يا صـحاوى
واستفيقى وطـاولى الأقمـارا
واسكبى الضوء فى مواكب هذا الليل
بشـراً ونفـدى الأزهـارا
واحمـلى معـزف اللقـاء وغـنى
واجعـل الليـل يستثير النهـارا
إنـه مولد النبى فحسب الروض أن
يهـرق الشـذا المعطـارا(١٦)

---

(١٥) ديوان محـرم ج ٢ ص١٥ .
(١٦) هجير وسراب ص١٢ ، احمد محمد خليفة ـ طبعة بيروت ١٩٦٢

إنــه معجــم جــديد تسمع فيــه الأهازيج والموسيقى ، وتشــم الأزهــار والعطور ، وتــرى مجموعة من الصــور : صورة الصحارى تطــاول النجوم ، والضــوء ينسكب والأفــق المسحور يوشى الكثبان والعطــر ينــداح وكلهــا صــور من معجــم الرومانسيين ، ويستمر الشــاعر فى القصــيدة حتى يختتمها كمــا بدأهــا بنفس المــذاق . فــاذا اختتــم أمــير الشعراء « شــوقى » قصيدته بالدعــاء :

ما جئت بابك هادحــاً بــل داعيــا
ومن المديــح تضــــرع ودعــــاء
أدعوك عن قــومى الضعاف لازمــة
فى مثلهــا يلقى عليــك رجــاء(١٧)

قــال الشــاعر خليفــة :

حــــلم طــاف بى يمثــل ركبــا
حــل بالســفح ســاعة ثم ســارا
إيــه يا ركــب أى رجــع حــــداء
بالترانيــم أخجــــل الأوتــــارا
لــم يــزل فى مسامعى منــه شــدو
يســتفز التــــاريخ والتذكــــارا
كلمــا مثلتــه أشــواقى الحــــرى
حيــالى طــوى الــرؤى وتــوارى
أتلقــــاه خاشــــعاً بجفــــون
يبعث الشــوق دمعهــا المــدرارا

---

(١٧) ديوان شوقى ص٦٠٥ ، الجــزء الأول .

يا نبى الهدى لدينك ضوء
إن دجا الليل يرشد الأبصارا(١٨)

وهكذا انتهى ناشراً أضواءه التى تبدد ظلام أيامنا ، وفى وسطها يتجلى نبى الهدى مشيراً الى الدرب .

وينهج هذا النهج فى قصيدته « إسراء محمد » التى مطلعها :

أى ذكرى علوية الايحاء
بعثت ريق السنى فى دمائى(١٩)

وقصيدته « تحية العام الهجرى » التى مطلعها :

يا هلالا لاح فى الأفق البعيد
أنت نجوى الروح والقلب العميد(٢٠)

وهو لا يقول :

نسفوا بناء الشرك فهو خرائب
واستأصلوا الأصنام فهى هباء(٢١)

فذلك تعبير تقريرى ، ولكنه يسقى دنيا الظلام من كأس قطر فيه نور الحق ..

حتى تعرت له الدنيا بأجمعها
وأظهرت للفتى الهادى خوافيها

---

(١٨) هجير وسراب ص١٤ ، ١٥ .
(١٩) من أغانى البحرين ص٣٧ .
(٢٠) هجير وسراب ص١٨ .
(٢١) ديوان شوقى ص١٠٤ الجزء الاول .

فسلسل الـوحى فى أجفانها ومضى
بالنور فى حالك الظلماء يسقيها(٢٢)

والواقـع أن الرومانسيين قـد بعـدوا عن شـعر المناسبات بصـفة عـامة ، ولذلك لم نعـد نجـد مثـل هـذه العنـاوين : مطـلع العـام الهجرى ، حديث الاسـراء والمعـراج ، حلول شـهر رمضـان ، فقـد انكب الشعراء على ذواتهـم وراحـوا يحللونها ، ولكن بقى ميـلاد الرسول ـ ﷺ ـ وبقيت هجرته وظـلت سيرته فى مواقفهـا العديدة تثـير وجـدان الشـاعر المسـلم ، والتطـور الذى حـدث لمسـناه فى شـعر « محمـد أحمـد الخليفة أو فى شعر محمـود حسـن اسماعيل » أو غيرهما من شعراء هـذا الاتجـاه الرومانسى .

ولذلك نجـد ديواناً مثـل « نـار وأصفاد » لمحمـود حسـن اسماعيل تحمـل قصائده هـذه اللافتات : نبى الحـرية ، قصـة طـلام ، جنـازة الوثنيـة ، الفـارس المندحر (سراقـة) ، نشيد الغـار ، النـور المهـاجر ـ على أن الأمـر ليس أمـر عنـوان ولكن بنيـة القصـيدة نفسها تطـورت ، وقـد رأينـا بعض الظواهر عند « محمـد أحمـد الخليفة » أمـا بقيـة الظواهر فنراها فى شعر « محمـود حسـن اسماعيل » :

ويـك يا نـار أى سـر حبيـس
فى لظـاك رآه أهـل المجـوس
زمزمـوا بالصـلاة والتقديـس
وأراقـوك فى شـعاب النفـوس

---

(٢٢) هجـير وسراب ص٢٠ .

خمـرة الحـب من يـدى إبليـس
ثم طافوا حـول اللهيب سـكارى

أعجـز المشركين منـه بيـان
كبـرت مـن جـلاله الأزمـان
وجثـا الجـن روعـة واسـتكانوا

فهـو يجـر من الهـوى وأمـان
كـل حى اليـه يبقى الفـرارا(٢٣)

إن « قصـة الظـلام » قصيدة لهـا مقـدمة من النثـر ، ولكنه نثـر أقـرب الى الشـعر الرومانسى فى معجمـة : « مع الأرض فى ظلمهـا وظلامها قبـل انبثـاق النـور الأعظـم ومع أول شـعاع تبلجت بـه سماء العـرب ، وأشرقت بـه حقيقة الانسـان • مـس جبينـه الخاشع للحجـر ، فارتفع للـه ، وظهـره المقوس للطغيان ، فسـواه للكرامة ، وبصـره الضارع للظـلم ، فأعـلاه للحق ، وقيـد الصـاغر للبطش فأحـاله أجـراس حـرية ، وكان للعـرب رسـول وحـدة وتوحيد ، ألف القلوب على اسـلام والحب ، وشـد الزمام إلى الابـاء والعـزة ، وشـق فى غياهب الوجـود طريق الفجـر ، تتألق بـه رايـة النصـر ، وتتوهج بـه جـذوة الكفـاح ، وتزحف بـه مواكب النضـال إلى شاطىء النـور »(٢٤) •

وهـكذا كانت هـذه القصيدة ، قصـة الصراع بين النـور والظلام وانتصار الحـق والهـدى ، ومن الواضح أن وحدة القصيدة الفقـرة لا البيت ، وذلك منهـم فى بنـاء القصيدة كـأن البيت قـد

---

(٢٣) نـار واصفاد ص١٦ ـ محمود حسن أسماعيل ـ القاهـرة ـ ١٩٥٩ م .

(٢٤) المرجـع السابق نفسه ص١٥ .

استطال وامتدت فكرته حتى نهاية الفقرة ، ثم تنوعت القوافى من فقرة الى أخرى كالموشحات ، والفقرة الأولى تحكى عن نار المجوس ، ولم يقل إن نار المجوس قد انطفأت ، كما قال الذين من قبله ، ولكنه يحكى قصة النار معبراً عن حيرته أمام عبادها من المجوس حين طافوا حول وهجها سكارى . كأن إبليس قد سقاهم نشوة حبها . فكل فقرة صورة التقطها مصور ، ولكنها صورة متحركة ، فنرى صورة الصنم المعبود ، وفى النهاية تهب الريح عاصفة فيقع ويتحطم ، ثم صورة عابد النجم ، وكلها تعبر عن الحيرة فى البحث عن الحقيقة ، وإن بدا مظهرها مستقراً ، ثم يظهر الرسول والقرآن معجزته الخالدة ، فيصور تهاوى الكيان عجزاً أمام أسرار إعجازه ، وخشوع الجن رهبة وروعة ، واقبال البشر يبحثون عن الهدى فى رحابه ، ولذلك ما يزال الزمن يكبر هاتفاً بجلال آياته . هذا المنهج فى العرض نجده فى قصيدة « جنازة الوثنية » وقد اتخذ شكل حوار بين اللات والعزى ومناة ، تخر فيها الأوثان ساجدة فى النهاية فتتحطم ، وفى قصيدة « معجزة العنكبوت » نرى مشهداً غنائياً ، أبطاله العنكبوت والحمامتان والثعبان ، وهكذا لونت الرومانسية السيرة النبوية بألوانها الثرية وأعطتها مذاقاً جديداً فى الصور والبناء الفنى .

وبهذا التنوع الخصب نستطيع أن نقول : إن المدائح النبوية فى الأدب العربى تقف على قدم وساق فى مقابل المدائح النبوية فى أدب العجم .

ففى بحث للعلامة « أبو الحسن الندوى »(٢٥) يقول : إن

---

(٢٥) مجلة الأزهر — فبراير ١٩٧٩ م .

اللغـــة الفارسية هى أغنى ثـــروة وأسعد حظـــاً فى المدائح النبوية من غيرهـــا ، وتليهـــا « أردو » التى هى سليلة الفارسية وإن ما قيـــل فى إيران والهنـــد فى هـــذا الموضوع يمتـــاز عن غـــيره ، قـــوة وتأثيراً ورقـــة وعذوبة ، وقـــد تجلت فيـــه العاطفة أقـــوى وأروع منهـــا فى غـــيره .

وقـــد ابتكر هؤلاء الشعراء معـــانى وأخيلة ، وجـــاءوا بتعبيرات لـــم يسبقوا إليهـــا .. « ويعلل ذلك بالمـــزاج الايرانى والهندى ، فطبيعة الفـــرس والهنـــد طبيعة الحب ولغتهم لغـــة الغـــزل ، فلمـــا انصرف ذلك كلـــه الى شخصية خصـــها الله بأعظـــم معانى الحسن والاحسان ، وأكبـــر مظهـــر الجمال والكمال ، جـــاء بالعجب العجاب ، ويضيف أن البعـــد عن الجـــزيرة العربية كـــان لـــه تأثيره ، فاستعاضة الشعراء عن الرحلة ــ حين كانت قوافل الحجـــاج تتعرض للغـــارة ، بالتعبير عن حنينهم وأشواقهم ، ثم يعرض أهـــم ما أتى بـــه شعراء العجم من جديد فى الصـــرر والمعانى ، « إن اليتيم الذى نشأ أميـــاً وعـــاش أميـــاً ، ولم يقـــرأ القـــرآن فى كتـــاب ، استطاع أن ينســـخ مكتبـــات شعوب كثـــيرة ، فتفقد قيمتهـــا وحيويتها ، وينشىء مكتبـــة جـــديدة ، كانت مصـــدر العـــلم والعرفان » .

فكـــذا قـــال الشيخ « ســـعدى » صاحب كلستان معبـــراً عن النقـــلة الاسلامية التى فاقت كـــل نقـــلة فى القديم والجديد فى عالم الأديان والأخلاق والعلوم والآداب والقيـــم والمفاهيم على يـــد أمى ، إنـــه لغـــز لا يحـــله الا الايمـــان بالقـــدرة الألهيـــة(٢٦) .

والواقـــع أن كـــل المعانى والصـــور التى أتى بهـــا العـــلامة

---

(٢٦) المرجع السابق نفسه ، المدائح النبوية عند العجـــم ــ عـــدد فبراير ١٩٧٩ بتصرف .

« أبو الحسن النـدوى » لشعراء الهنـد والفـرس طافت بأشعار العـرب ، والفـارق الأهـم ربمـا كان فى الصياغة ، لأن حياة الرسول مدروسة معروفة ، وتاريخ المدائح طـويل مشهور ، على أننـا لـم ننتـه من شـعر العـرب بعـد ، فمازال أمامنـا موقفـان :

الأول : شـعر النصارى وعلى الأخص نصـارى المهجـر فى فى عهـد الرسول — ﷺ — .

الثانى : شـعر العـرب المعاصرين من أصحاب الشعر الحربى على وجـه الخصوص .

فمـا الرؤية الجديدة التى يمكن أن يضيفها كـل منهـم الى التـراث النبـوى ؟

من اللافت للنظـر أن الدارس لشعر شعراء المهـاجر ، يجـد ظاهـرة التسامح الدينى واضحة فى أشعارهم ، ويعـلل بعض الباحثين وضـوح هـذه الظاهرة فى شعرهم باتسـاع مفهـوم الحرية الدينية فى العـالم الجـديد الذى هاجروا إليـه(٢٧) .

ولكن وضـوح مجموعة ظواهـر بدرجة واحـدة فى شعرهم ، تجعلنـا نعيـد النظـر فى هـذا التفسير ، فالظاهرة الثانية هى الشعر الوطنى والقـومى ، والظاهرة الثالثة : هى الحنين ، فالموقف كلـه على هـذا الأساس ، ارتبـاط بأرض النشـأة حيث المسلمين وحيث يعيش الصليب فى رعـاية الهـلال ، على الرغـم من بعض الأحـداث العارضـة التى لا يحبهـا جوهـر الاسـلام .

---

(٢٧) راجع قصة الأدب المهجرى ، الجزء الثانى ، د. محمد عبد المنعم خفـاجى ص١٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ وصفحات متفـرقة كثيرة باتخصـار وتصـرف .

يقـول جبران : « أنـا مسيحى ولى الفخـر بذلك ، ولكننى أهـوى النبى العـربى وأحب مجـد الاسلام وأخشى زواله ، إننى أسكن المسـيح شطراً من حشاشتى ومحمـداً الشطر الآخـر »(٢٨) .

ويوازن « أمين الريحانى » بين الكنيسة والجـامع فيقـول « لم أر بين سـائر أماكن العبـادة التى أعرفهـا أفضل من الجامع ، هـو المـكان الذى يؤثـر على بديمقراطيته أكثـر من سـواه ، لمـا فيـه من شعائره المتنوعة ، فليس فى الجـامع ما يداهن الأغنيـاء ، أو يكسر قـلب الفقـراء أو يغفـل الورعين أو يـرد ثقيلى الأحمال خائبين ، وليست بشاشة الجـامع بمقاعده المزدوجة ـ مثـل الكنيسة ـ ولبست رغبـة النـاس فيـه لصدقاته ، والخـدمة يـوم الجمعة تكاد تنحصر بخطبـة مصدرها القـرآن ، فهى إذن لحـن من البلاغة تعشـقه الأسماع فيحدث فى القلوب خشوعا وفى الأفكار نزوعـاً إلى العـلاء . الجـامع مينـاء يرتاح اليـه الشحاذ والأمـير ، وهيـكل يضـم المؤمنين ، ونـاد يقبـل أولاد الله على السـواء ، هـو حيث يعثـر المنبـوذ على حجـر يسـند إليـه رأسـه فتكتنفه رهبـة القـبة الواسعة التى تعـلوه ولا يحـرك السكينة فى ذلك المـكان إلا كلمات : يا الله ، يا كـريم ، التى تدفعها الصدور وقتـاً فآخـر ، وإن النفس لتخشع فتدعو الجسـد ، وتبتهج فتدعـو العقل إلى علويات السكون الذى لا يوصـف ولا يحـد(٢٩) .

« لا صنوج ولا أجـراس ، لا آلـة موسيقية ولا جـوق مغنين ، لا رسـوم ولا تماثيل ، ولكن أضـواء الايمان المشتعلة دائمـاً تهدى

---

(٢٨) راجع « التجديد فى شعر المهجـر » لمحمد مصطفى هـدارة ، طبعة القاهرة ١٩٥٧ ص١٢٣ .

(٢٩) راجـع : الريحانيات جـ ٣ ص٥٢ بتصرف .

النفس ، فتجد خلال ذاك السكون وتلك الرهبة سبيلها الى العزة الالهية ، إلى الاله الواحد ، الى الله . لم لا تكون الكنيسة كالجامع الفسيح المطلوق للهواء النقى ، تؤمه حينما تشاء وتبقى فيه ما تشاء ولا حرج عليك ولا قيد ولا ضريبة » .

« وقد أقيمت الصلاة ولكن الجزء المهم منهم لم ينته ، وسيقام فى الزقاق الضيق أمام الكنيسة ، حيث شرذمة من البوليس يحفظون نظام العربات الذاهبة الآتية ، فيتحرك نحو الباب قطار السيارات الفخيمة المتعددة الألوان ، وكذلك الأشكال ، يحق بها الحشم وعلى دفتها السائقون الكيسون المتشامخون والعربات تجرها المطهمات ، فيثب منها الغلمان فى الأثواب المقصبة الرسمية يفتحون لأسيادهم الأبواب ويطأطئون الرؤوس للسيدات ، غوغاء وغرور ، ضجيج وتصلف ، معرض مدهش فى العبادة ، أبهة وفخفخة فى الورع والتقوى ، تعال يا أخى المسيحى الفقير ، تعال معى إلى الجامع »(٣٠) . بهذه الروح السمحة كان مسيحيو المهاجر ينظرون الى الاسلام كدين سماوى رفيع فى جوهره ، عظيم فى شعائره ، وقد عبر « رشيد أيوب » عن ذلك بقوله :

فمن يا ترى أعلى الورى كمحمد
وأرفعهم مجداً وأسمى مناقبا(٣١)

ويشارك « رياض المعلوف » اخوانه المسلمين فى الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول — ﷺ — فيقول فى قصيدة « وحد الله »(٣٢) :

---

(٣٠) المرجع السابق نفسه جـ ٣ ص٥٣ ، ٥٤ .
(٣١) ديوان الأيوبيات ص٣٧ .
(٣٢) ديوان خيالات — رياض المعلوف — طبع سان باولو ١٩٤٥ ص٧

وحـــد اللـــه فالمـؤذن وحـــــد
ويذكـــر النبى فى العيـــد أنشـــــد

يا رســـول الأنـــام أنـــت وعيـــسى
خـــير من يصطفى ويرجى ويقصـــد

وكـــفى العـــرب فخرهم بانتســـاب
لنـــبى هـــــو النـــبى محمـــــد

وللشـــاعر القـــروى ـــ رشـــيد سليم خـــورى أكثـــر من قصيد فى الرسول محمـــد ـــ ﷺ ـــ فهـــو مثـــل زميله « رياض المعلوف » يحتفـــل بذكـــرى المولد النبـــوى فيقـــول :

عيـــد البريـــة عيـــد المولد النبـــوى
فى المشرقين لـــــه والمغـــربين دوى

بـــدا من الفقر نوراً للورى وهـــدى
يا للتمدن عـــم الكـــون من بـــدوى

يا قـــوم هـــــذا مســـيحى يذكركـــم
لا ينهض الشرق الا حينـــا الأخـــوى

فـــان ذكـــرتم رســـول الله تكـــرمة
فبلغوه سلام الشاعر القـــروى(٣٣)

ولـــه قصـــيدة أخـــرى قالهـــا فى « سلطان باشـــا الأطرش » قـــائد ثـــورة الدروز عـــام ١٩٢٥ م وهى تمتلىء فخـــاراً بثـــورته العربية ضـــد الاستعمار الفرنسى ، ويوازن بين الاســـلام والمسيحية ، ويـــرى الاســـلام دين العصـــر ، ومن هنـــا يذكـــر محمداً ـــ ﷺ ـــ فيقـــول مخاطبا سلطان باشـــا الأطـــرش :

---

(٣٣) ديوان القزوى ص٢٢٥ ، طبعة البرازيل ١٩٥٢ .

فتى الهيجاء لا تعتب علينا
وأحسن عذرنا تحسن صنيعاً
تمرستم بها أيام كنا
نمارس فى سلاسلنا الخضوعا
فأوقدتم لها جثثاً وهاما
وأوقدنا المباخر والشموعا
إذا حاولت رفع الضيم فاضرب
بسيف محمد واهجر يسوعا
« أحبو بعضكم بعضاً » وعظنا
بها ذئباً فما نجت قطيعا(٣٤)

ولعل « أبا الفضل الوليد » إلياس عبد الله طعمة ، كان أكثر التفاتاً من بقية شعراء المهجر الى الرسول والرسالة . فقصائده الأولى بديوانه الكبير ، المشرقية والمغربية والمكية والمقدسية ، كلها تعرج على الرسول ، وهكذا فى قصائده التالية : الأموية والبغدادية والأندلسية ، يقول فى نهاية قصيدته الأندلسية :

يا أحمد المرتضى والمرتجى أبداً
ألست من سطوات الروم تحمينا
يا أرفع الناس عند الله منزلة
متى نرى السيف مسلولا ليشفينا(٣٥)

وفى القصيدة الصحابية التى يتناول فيها صحابة رسول الله — ﷺ — يسير على نفس النهج ، أعنى نهج البطولات التى

---

(٣٤) المرجع السابق نفسه ص٢٥٧ .
(٣٥) راجع ديوان ابى الفضل الوليد ص١١١ .

تتجاوز فيها القصيدة مائة بيت ، وتتناول قضية الوطن الذى ظل الشاعر يحمل همه فى غربته ، ومن هذا المنطلق يصل إلى أمجاد العرب الأوائل وتعاليم رسول الله قائلا :

وكيف أوفى خير من وطىء الثرى
من المدح حقا والثناء عياء

إلهية أقواله وفعاله
يقصر عن إدراكها الحكماء

دعا قومه والناس طرا الى الهدى
وللأرض منة فى الظلام ضياء(٣٦)

ومن أمريكا الجنوبية يهتف بعروبته وقد أحس الغربة :

أنا العربى بين الروم أمشى
غريبا أو أعد من الأسارى

رأيت عروبتى شرفاً وفخراً
نبت أود إسلام النصارى(٣٧)

وهو هنا قاب قوسين أو أدنى من الاسلام ، ولكنا نراه بعد حين يسلم سنة ١٩١٦(٣٨) . ويتخذ اسم الوليد بدلا من إلياس ويذكر اسلامه فى أكثر من قصيدة ، وفى أكثر من مقالة ، معتزاً بدينه ، فاخراً بسيرة رسوله ، مستشفعاً به :

أعاهد ربى أن أصلى مسلماً
على أحمد المختار من خير أمة

---

(٣٦) المرجع السابق نفسه ص١١٣ .
(٣٧) المرجع السابق نفسه ص١٢١ .
(٣٨) يراجع اسلامه فى كتابة « التسريح والتصريح » طبعة بيروت ١٩٣٤ ص١١ .

هـدانى هواهـا ثم حسب شرعـه
إلى فصحت مثـل صـبى عقيـدتى
فدن قـومه قـومى أدين بدينـه
لأنى أرى الاسـلام روح العـروبة
توسلت بالقربى إليـه فـلم تضـع
لـدى العـربى الهاشمى شـفاعتى
فشرفنى بعـد العـروبة بالهـدى
وفضلنى بين الـورى لقرابتى(٣٩)

أمـا الاتحـاد الأخـير فى الشـعر فهـو اتجـاه أصـحاب الشـعر الجـديد ، ومن الحـق أن أصحاب هـذا اللون قـد صرفهم اهتمامهم بالاتجاهات الغربية عن التـراث إلى حـد مـا ، ولذلك لـن نتوقع التفـاتاً الى المناسبات أو تمشيا مع الخـط السـابق فى المـدائح النبوية ، كمـا انصرفوا عن شـعر الأحـداث فى حيـاة الأمـة ، واتجهـوا الى الموقف الانسانى العـام ، يحللون أعمـاقه ، مثلمـا نجـد على سبيل المثـال فى مطولات رائدهم « بـدر شـاكر السياب » (الأسلحة ولأطفـال ، العميـاء حفـار القبـور) وكلهـا قصـائد رمـزية . ومن هـذا المنطلق ، سـوف نجـد الرسـول ـ ﷺ ـ يصبح رمـزاً كبـيراً للجهـاد ، للهداية ، لانتصـار الحـق على البـاطل ، للغفـار بالانتساب اليـه ، وكلهـا معـان سامية تلخص المدائح فى إشـارات شـديدة التركيـز :

لا تتركـونى فالضـحى نسـبى
مـن فـاتح ومجـاهد ونـبى

---

(٣٩) ديوان ابى الفضل الوليد ص٣٦٣ .

عربيـــة أنـــا أمـــتى دمهـــا
خـــير الدمـــاء كمـــا يقول أبى(٤٠)

والاشارة الى النبى هنـا جـاءت فى مجـال الفخـار بالانتساب اليـه فيشعر الضعيف بالقـوة والفقـير بالغنى ، ومن الغـريب أن المطـولة من الشعر الحـر ، ولكن الأبيـات التى يـرد فيهـا ذكـر النبى ـ ﷺ ـ من الشـعر العمودى ، كأنمـا العـودة إلى الأصول ترتبط فى الأذهـان بالعـودة الى نسـق التراث حيث عاش الرسول والمجاهدون الأول ، وفى قصـيدة « عـودة رمضان » يقـول الشاعر « غـازى القصيبى » « القـدس رجـاء ، يطـوى ليـل الارهاب إلى أهـل الاسراء يتحسس رايات محمد ، وكتائبه عبـر الصحراء »(٤١) .

وهنا يأتى الرسول ـ ﷺ ـ رمـزاً للمنقذ حين يدلهم الخطب . ورمـزاً للمجاهد ضـد الظـلم والبـاطل الذى يصرع قـوى البغى وبخلصنا ، ورمـزاً للتجمـع الاسلامى تحت رايته .

ومن هذا المنطلق أيضـاً تأتى قصيدة « محمد يارسول الله »(٤٢) وهى من قصـائد المولد النبوى ولكنهـا لا تـؤرخ لأحـداث السيرة كمـا تعودنا أن نـرى ، وهى فى نفس الوقت من قصـائد الديـوان التى التزمت النظـام العمودى ، يقـول الشاعر « هـارون هاشـم رشـيد » :

وددت لـو أننى فى مولد الهادى أغنيـــة

---

(٤٠) مطولته « انشودة المطـر » ص٢٢٢ .
(٤١) أنت الرياض ـ طبعة القاهـرة ١٩٧٧ م ص١٠٩ .
(٤٢) حتى يعـود شـعبنا ص٥٧ ـ هـارون هاشـم رشـيد ، بـيروت ١٩٦٦ .

وأجدل من خيوط الشمس إكليلا وأهديه
ومن وهج السنا والضوء والالهام أسقيه
وأمنحه أعزب الحب والأشواق أعطيه
ومن أعماقى المشبوبة اللهفى أناجيه
أنيس محمد للكون .. كل الكون هاديه

وبداية القصيدة غريبة ، فالشاعر لا يستطيع أن يغنى على الرغم من ذكرى يوم المولد ، وعلى الرغم من كل صور الاجلال والحب الذى يبدو فى أبياته لهادى الكون محمد عليه الصلاة والسلام ، ونتابع القصيدة علناً نجد ما يعوقه عن الغناء ، ولكنا نجده مستمراً فى الحديث عن أمانيه :

وددت لو أن لى يافا فأجمع كل ما فيها
من الأزهار أنثرها لمولده وأذريها
وأطلق من مآذنها تكابيراً تضويها
ولكن أين لا يافا ولا حتى ضواحيها

وتنطلق آهاته ويحس أنه يغوص الى الأعماق ، فيبحث عن المنقذ ويستشفع به ، فلا يجد أمامه سوى الرسول المخلص وسط خداع العالم من حوله :

محمد يا رسول الله إنى ضائع ضائع
وشعبى فى مهب الريح مثلى تائه جائع
تقاذفه الرياح الهوج عبر العالم الخادع
فأين رسالة للحق أنت منارها الساطع
وأنت بشيرها للكون أنت المرشد الوادع

محمد أنت نجدتنا وأنت حبيبنا الشافع(٤٣)

ويتكرر نداؤه « محمد يارسول الله » فى مطلع كل فقرة حتى نهاية القصيدة أشبه بنغمة القرار التى تشد أجزاء العمل الفنى ، وأشبه بهتافات الدراويش فى حلقات الذكر ، فساعد على ذلك « بحر الهزج » ولكن ترنحات الدراويش التى تشبه التيار السالب لا تلبث أن تتحول إلى تيار موجب ومنها يتولد التيار المؤثر .

من هذه الهتافات تتولد الثورة :

محمد يارسول الخير مافى دورنا خير
فقد داهمها الباغون قد باغتها الشر
فان لم ترفع الرايات إن لم يهدر الثأر
ليغسل عار ماصنعوا ويمسح رجس مانشروا
فلا كنا بشعب محمد نسمو ونشتهر(٤٤)

وهكذا يكون الرسول — ﷺ — رمزاً للجهاد والصبر دون يأس ، وهنا تتبدل الكلمات من الضياع والتيه والجوع والضراعة والأحزان إلى هدير الثأر والصمود وارتقاب الزحف والتكبير فى مسيرة الخلاص ، ولعله قد اتضح الآن أن الشعر المعاصر لم يعد يتخذ مولد الرسول — ﷺ — للحديث عن تاريخ محمد — صلوات الله عليه — كما جاء فى السيرة ، وكما كان يصنع الشعراء من قبل ، ولكنه يتخذ من مولد الرسول رمزاً لموقف عربى فيه ربط بين الماضى والحاضر ، ومن أجل هذا

---

(٤٣) المرجع السابق نفسه ص٥٨ .
(٤٤) المرجع السابق ص٦٠ .

لا يشدو الشاعر المعاصر ولا يغنى غناء الشاعر السابق ، فقد أصبحت همومه أكبر من الغناء ، وأصبحت رؤيته للتراث استلهام التراث وترميزه ليصبح أكثر قدرة على العطاء من مجرد العرض والسرد .

وكان الرسول — ﷺ — الشعلة التى حملها الشعراء فى كل اتجاهاتهم الفنية المعاصرة .

— ٤ —

ثانيا : الرسول صلى الله عليه وسلم فى النثر الفنى الحديث :

والحديث عن النثر الفنى فى موضوعنا « الرسول — ﷺ — فى مرآة الأدب العربى الحديث » يعنى تناول السيرة الأدبية فى الدرجة الأولى ، وليس من العسير ملاحظة الحركة الصاعدة للسير الفنية التى تناولت حياة الرسول — صلوات الله عليه فى ضوء أحداث العصر نفسه . وفى العصر الحديث حدثت تطورات خطيرة فى العالم العربى ، كان من أهمها سيطرة الاستعمار على جميع الدول العربية ، واحكام قبضته عليها ، وظهور الدعوات التبشيرية فى صورة غزوات ضخمة منظمة ، لذا تنبه المسلمون الى الخطر الذى يهددهم فى عقيدتهم وبلادهم ، فراحوا يدافعون بكل قوتهم وأسلحتهم ، وكان سلاح الكتاب ، الكلمة المضيئة والعبارة المقنعة ، وذلك من خلال الكتابات الاسلامية المتنوعة .

وقد صور الدكتور « هيكل » التطور الذى حدث فى تعليقه على كتاب « وجهة الاسلام » الذى نشره « جب » فى سنة ١٩٣٢ م فقال : إن الذين درسوا فى أوربا كانوا هم رسل الحضارة العربية الداعين اليها ، ظناً منهم أن ذلك هو

السبيل الى نهضتنا ، وإن هـؤلاء الشباب قـد تفتحت أعينهـم على حقيقة الأمـر بعـد الحـرب ، فقـد أدركوا أن كـل ما بذلت الشعوب العربية من تضحيات لـم يكن إلا فى سبيل الاستعمار ، وأدركـوا أيضـاً أن الدول الأوربية التى تزعـم أنهـا قـد تحررت من التعصيب الدينى ، هى دول متعصبة تعصـباً مسيحيا ، لم تنس معـه الحروب الصليبية ، حتى إن قـائداً كبـيراً من قوادهم وهـو « اللنبى » قال بـوم استولى على القـدس : « إن الحروب الصليبية قـد انتهت اليـوم » ثم إن الدول الأوربية شملت بحمايتها للجماعات التبشيرية المنبثـة فى كل مكان ، وعند ذلك غضب هـذا الشباب لاسلامه(٤٥) .

ومقـدمة « هيكل » لكتـابه « فى منـزل الوحى »(٤٦) من أوضح الأمثلة على هـذا التطـور ، فهـو يـرد على صحبه الذين يقولون : إنـه أصـبح بعـد تأليفه « حيـاة محمـد » رجعيـاً وكان فى طليعة المجددين فيقـول « ولقـد خيـل الى زماننـا كمـا لا يزال يخيـل إلى أصحابى أن نقـل حيـاة الغـرب العقلية والروحية سبيلنا الى هـذا النهوض ، وما أزال أشـارك أصحابى فى إنـا ما نزال فى حاجة إلى أن ننقـل من حيـاة الغـرب العقلية كـل ما نستطيع نقـله ، ولكن أصبحت أخالفهم فى أمـر الحيـاة الروحية ، وأرى أن ما فى الغـرب منهـا غيـر صـالح ، لأن ننقـله فتاريخنا الروحى غـير تاريخ الغـرب ، وثقافتنا غـير ثقافته ، خضـع الغرب للفـكر الكنسى على ما أقرته البابوية المسيحية كيف نستطيع ،أن ننقـل ثقافة الغـرب

---

(٤٥) براجع فى : الدكتور : محمد حسين هيكل ـ حياته وتراثه الأدبى طـه وادى ص١٣٠ : ١٣١ بتصرف ، مطبعة النهضة ١٩٦٩ م .

(٤٦) طبـع الكتاب سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٦ م) بعـد ظهور كتـابه « حيـاة محمـد » بعـام واحد ، ويصف فيـه رحلته الى الحجـاز لاداء فريضة الحـج .

الروحية لتنهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم .

لا مفر إذن من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطوار ماضينا هذه الحياة الروحية »(٤٧) .

وبدا أن هناك وعياً إسلاميا جديداً استيقظ فى نفوس المسلمين ، وجذب هذا التيار كثيراً من كبار الكتاب ، فظهر كتاب « على هامش السيرة » لطه حسين سنة ١٩٣٣ م ، وظهر كتاب « حياة محمد » لهيكل سنة ١٩٣٥ ، وكتاب « عبقرية محمد » للعقاد فى نفس الوقت وتوالت الكتب الاسلامية بعد ذلك(٤٨) .

والحقيقة أن كتاب « حياة محمد » لهيكل يعتبر من أوائل الدراسات الجادة فى أدبنا المعاصر ، التى تمثل التشكيل الجديد للسيرة النبوية ، ولكن إلى أى حد يبتعد الكتاب عن منهج السيرة لابن هشام وعن الدراسة التاريخية أو إلى أى حد يقترب من مناهج السيرة الفنية ؟

يقول المؤلف فى مقدمته : إننى أجرى فى هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة ، واكتبه بأسلوب العصر وإننى أفعل ذلك لأنه الوسيلة الصالحة فى نظر المعاصرين لكتابة التاريخ وغير التاريخ ، من العلوم والفنون وما كان لى وذلك شأنى ، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها ، وبين هذين وبين

---

(٤٧) ص٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ فى منزل الوحى ـ دار المعارف ، طبعة خامسة ١٩٧١ م .

(٤٨) يراجع : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ٢ ص١٤٥ ـ ١٦٠ ، محمد محمد حسين ـ طبعة القاهرة ١٩٥٦ .

النهج والأساليب فى عصرنا الحاضر بون عظيم ، أيسره أن النقد فى الكتب القديمة لم يكن مباحاً بالقدر الذى يباح به اليوم ، وأن كثرة الكتب القديمة كانت تكتب لغاية دينية تعبدية على حين يتقيد كتاب العصر الحاضر بالمنهج العلمى والنقد العلمى وما أشك أن التعمق فى البحث يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمناً أن لا سبيل الى تعليلها علمياً ، ثم إذا «باحث علم النفس» تفسرها(٤٩) . إن المؤرخ المعاصر يعتمد على الوثائق الثابتة فيسجل الأحداث ويربط بينها ويفسرها ، ولكنه لا يلجأ الى علم النفس ولا يستخدم نتائجه ، لأنها قائمة على فروض غير ملموسة ، أما كاتب السيرة فيستفيد من علم النفس ويعتمد عليه فى الكشف ويستغله فى النجوى . والتزام للمنهج العلمى نتيجة لطبيعة العصر من ناحية ، ونتيجة لموقف بعض العلميين الذين يشككون فى كل مالا يثبت علمياً من القضايا الدينية ، فهو يصطنع هذا المنهج الذى يبدأون به ليدحض حججهم أو ليرد اليهم يقينهم . ويتتبع حياة الرسول — ﷺ — من الميلاد مناقشاً بعض الأمور : كشف الصدر — والعنكبوت بالحمامة ثم ينتقل الى الاسراء والمعراج فيقرر : إن العلم الحديث يقرهما على أن تكون الشخصية كشخصية الرسول تسمو عن ماديات الحياة ، وبمثل هذا المنهج يسير مع حياة الرسول — ﷺ — الى النهاية(٥٠) . ويلجأ « هيكل » إلى تجاربه الخاصة وهى خاصية قصصية استغلها كتاب السيرة ، فيعرض مثلا — لموقف الرسول — ﷺ — حين دخل بيته والتراب على رأسه بعد أن اعترضه سفيه من قريش فقامت إليه ابنته فاطمة تغسل عنه التراب ، وهى تبكى « وليس أوجع لنفوسنا من

---

(٤٩) يراجع « حياة محمد » صفحات ٣٤ ، ٣٥ ص٣٦ : ٣٧ بتصرف

(٥٠) ص٢٠٨ من « حياة محمد » .

أن نسمع بكاء بناتنا فكل دمعة ألم تسيل من مآقى البنت قطرة حمم تهوى على قلبنا فينقبض انزعاجاً »(٥١) .

ويلجأ المؤلف إلى الحوار يخفف به حدة الدراسة ، مثل الحواريين خالد وعكرمة حين أسلم خالد . كما لجأ إلى الروح القصصى فى بعض المواقف ، فحين فرت القبائل المسلمة يوم حنين ، يتحدث عن الرسول قائلا : « ماذا تراه يصنع ؟ أفتنحى عنه ربه وتخلى عنه نصر الله ؟ كلا ، لن يكون هذا ، دون هذا تبيد أمم وتفنى أقوام ، ودون هذا الموت يدخل محمد فى غاره لعل فى الموت لدين الله نصراً »(٥٢) .

وهكذا نستطيع أن نقول فى النهاية أن « حياة محمد » يمثل مرحلة فى تطور دراسة تاريخ الشخصيات وتحولها الى سيرة لها خصائصها الفنية فى أدبنا الحديث . وفى نفس الوقت كانت محاولة « طه حسين » فى كتابه (على هامش السيرة) وهى محاولة أكثر أصالة فى فن السيرة الأدبية ، فقد اصطنع المنهج الروائى ، وتبعه وسار على منهجه « عبد الرحمن الشرقاوى » فى كتابه « محمد رسول الحرية » ، وعبد الحميد جودة السحار فى كتابه « محمد رسول الله والذين معه » ، ومحمد شوكت التونى فى كتابه « محمد فى طفولته وصباه » ، وعروف الأرناؤوط فى كتابه « سيد قريش » ، وبنت الشاطئ فى كتابها « مع المصطفى » وغيرهم .

يقول (طه حسين) فى مقدمة « على هامش السيرة » موضحاً منهجه الفنى « وأحب أن يعلم الناس أنى وسعت على

---

(٥١) المرجع السابق نفسه ص٢٠ بتصرف .
(٥٢) المرجع السابق نفسه ص٤٣٤ بتصرف .

نفسى فى القصص ، ومنحتها من الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث مالم أجد بأساً إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبى أو بنحو من أنحاء الدين فانى لم أبح لنفس فى ذلك حرية ولا سعة »(٥٣) • يقول « السحار » فى تذييل كتابه (محمد رسول الله) : « فأعجبتنى طريقة الدكتور فى السرد ، وجعلتنى أعيش بكل جوارحى فى ذلك العصر الذى استطاع الدكتور طه حسين ببراعته أن يجعله ينبض بالحياة ، اخترت أن أكتب السيرة بأسلوب قصصى ، وأنا على علم بما يعانيه كاتب التاريخ من مشقة إذا حاول أن ينهج فى كتابه نهج القصة ، فانه سيشقى فى سبيل دراسته أشخاص السيرة دراسة دقيقة ليبرز ملامحها وجوانبها ، وسيبذل كل الجهد لتصوير الحياة اليومية والمعتقدات والديانات السائدة بأدق تفاصيلها وتفاعل الشخصيات مع البيئة ، والاعتماد على الخيال فى سد الثغرات والفجوات التى تعترض التسلسل الزمنى ، على أن يتناسق الخيال مع المادة التاريخية ليبرز جوهر الحقيقة ويعين على استقراء الأحداث لتوفير التسلسل المنطقى ، حاولت جهدى أن أحافظ على الحقيقة التاريخية ، فما من حادثة دونتها إلا ولها سند وقد محصت الروايات المختلفة وأخذت أقربها الى المنطق وروح الدعوة »(٥٤) •

ومن الواضح أن المنهجين متشابهان فقد لجأ كل منهما إلى الحوار فى كثير من المواقف بدلا من المادة التاريخية الصلبة والعرض الروائى وملء الثغرات بالاستنتاج التاريخى ، لأن كاتب السيرة يسير حقيقة على حافة السكين ، فان أعمل الخيال

---

(٥٣) مقدمه على هامش السيرة ، طه حسين : طبعة القاهرة ١٩٣٣ م •

(٥٤) محمد رسول الله ــ ص٢٢٦ •

كـان عمله قصـة تاريخية ، وإن ترك الأسلوب الروائى كتب تاريخاً . وإذا استعرضنا هـذا اللون وجـدنا الأمـر هنـا يختلف عن السيرة الموروثة ، لا من حيث تخليصها من اسـناد وحسب ، فتلك ظاهـرة شكلية ، ولكن السـيرة الجديدة قدمت لنـا المشاهد والحوار والأبطال واضحين ، يمثلون جوانب الخـير والشـر ، وتتشابك الأحداث تشابكاً طبيعياً فى بيئـة مجسمة بأرضها وسمائها وجبالها وعاداتهـا وتقاليدها وخـلق أهلهـا وطبائعهم ، كـل هـذا من خـلال السـيرة نفسها ليسـت المسـألة إذن مسـألة اسـناد ، ولكن ما يستتبع ذلك من أخبـار تجـزأت هنـاك ، وتكاملت هنـا ، ومن هنـا ندرك أبعـاد الشخصيات ونحس بمـا يضطرب فى نفوسها وما يسيطر على عقولها فتتحرك وتتطور كـل ذلك من خـلال تتبع حيـاة الرسول ـ ﷺ ... وإذا حاولنـا أن ننظـر الى أحـد المواقف لنـرى كيف تناولته هـذه الكتب المحـدثة ، وجـدنا نصـار الا « للشرقاوى » والموقف هـو النـذر الذى نـذره عبد المطلب ، وأراد تحقيقه بذبـح ولده عبد الله . فهـو موقف بطبيعته يصـلح للدرامـا وقـد رواه « طـه حسين » من خـلال حـوار قصصى • ومن المؤكـد أن الدموع قـد سالت من أعين كثـيرة وأن كثـيراً من الحـوار قـد دار فى مكـة حين هـم عبد المطلب بذبـح ولـده عبد الله ، وإن الاحكام الى الكاهنة كـان نتيجـة مشـادة وحـوار ، ومن هنـا كانت الصياغة الروائية هى الاطـار لذلك الأسـاس التاريخى •

أمـا « الشرقاوى » فقـد استخدم « النجـوى » ليعمق الموقف أو يوضـح جزئياته ، وقـد تخلص « الشرقاوى » من أسلوب السرد المطـول الذى لا يـدل فى كثـير من الأحيـان الا على مقدرة أسلوبية أمـا « النجـوى » فهى على مـدى السيرة عنصر بنـاء ونمـو • وها هـو ذا يستقبل الحيـاة مـرة أخـرى بعـد نضـال طـويل

مع المصير لكأنه يولد فجأة من جديد ، بكل فتونه وأشواقه وأحلامه وقامته المديدة وصوته الطيب المفعم وأمله المعذب في الخلاص) • بهذه البساطة رسم لنا « الشرقاوى » خطوطاً عامة لملامح عبد الله ، ثم يتضح عنصر النجوى في الجزء التالى : (أية مقاومة يملكها فتى مثله أمام كل هؤلاء الأرباب ؟ أيملك عبد الله بن عبد المطلب أن يطلق صرخة احتجاج على هذه القوى التى تحرس الكعبة منذ القدم والتى ما يزال يمتثل لها ـ مع أبيه ـ كل الملأ من قريش ؟ على أن المصادفة أنقذت حياة على أية حال بعد ما أوشك دمه أن يسيل تحت أقدام تماثيل الآلهة الرهيبة التى تجرؤ على أن تحرم فتى فى مثل سنه وعنوانه من طيبات الحياة ، وأنه الآن ليتشبث بيد أبيه عبد المطلب ، يمضى معه الى الدار بعد أن وهب الحياة مرة أخرى ، وكأنه يوسف الذى سمع قصته فيما سمع من قصص الغابرين خلال رحلاته مع القوافل ، لكأنه يوسف يرتمى فى أحضان أبيه الصابر ليستمتع بدفء الأبوة بعد طوافه الطويل المشرد فى أرض الغربة)(٥٥) •

الصراع هنا واضح فى نفسية الفتى ، فالمصادفة وحدها هى التى تخط أقدار الرجال ، ومن ورائها تمثال منحاة ، آلهة بلا قلب تملك القضاة ، فهل يملك أن يقاوم ؟

ولاشك أن عبد الله لم يكن وحده يحاول الاجابة عن هذا السؤال ، ولاشك أن التمرس بالرواية تمكن كاتب السيرة من تشكيل حياة شخصياته داخل هذا الاطار بل يغريه إغراء باختباره •

---

(٥٥) محمد رسول الحرية ص٧ ؛ عبد الرحمن الشرقاوى ـ طبعة القاهرة ١٩٦٧ .

إنهـا قصـة واقعية سـجل التاريخ وقائعها ، وأعادت السيرة تصـوير أفعالها(٥٦) وقـد لجـأ « الشرقاوى » أيضـاً الى نجوى الذات حين عـرض لموقف الرسول ـ صلوات الله عليه ـ من المجتمع المـكى بمـا فيـه من استبداد القـوى بالضعيف وفساد يستشرى فى صـورة عبـادة الأوثان ، وقـرف المترفين وذل العبيـد ، وخوض الناس حتى الأذقان فى الخطيئة ، ممـا يكاد يستحيل معـه الاصلاح ، وهـو مضطر الى هـذه النجوى ، فليست أمـامه الوثائق التى ترسم صـورة مفصـلة لضـيق الرسول بكـل ذلك ، وإن كنـا نعـرف إجمـال هـذا الضـيق ، ولكن الكاتب هنـا لا يـدع الفرصة تمـر دون التركيـز عليهـا واستغلالها من أجـل تطـور السيرة • سوف نناجى أنفسنا نحن أيضـاً ونغضب لغضب الرسـول ونؤمن إيمانه بتغيير المجتمع المتفسخ ، وبنـاء مجتمع العـدل والهداية والفضيلة ، وبذلك تؤدى النجـوى دورها المرسوم حين يقـول : « التجـار فى مكـة هـم حمـاة أوثان الكعبـة التى تقضى لهـم باذلال الآخرين ، أمـا فى الشـام فالأمـر مختلف ، هنـاك المسيحية ، فمـا بـال الرجـل يلطـم أخـاه على كـل خـد ويأخـذ ما ليس لـه ، وما بال المستكبرين هـم وحدهم الذين يستمتعون بالحيـاة كـأنا هى مـلك لهـم وحدهـم ، وما بـال الخيرين يحترقون فى كبرياء الأشـرار ؟ ولكن الحيـاة ليسـت هى البيت الذى يعيش فيـه الرجـل ، ليست هى ـ فحسـب ـ الزوجـة المحبـة الصالحة ولا الأولاد الذين يملأون القلب بالرضـا ، إن الأمن ليعمـر البيت ، هـذا حـق ولكن الحيـاة من خارج بابـه تضطرم بمـا يمـزق القلب المطمئن ، عالمك العريض الذى تعيش فيـه لا هـدوء فيـه بعـد ، ولا شىء « منـه تطيب

---

(٥٦) المرجع السابق نفسه ص٨ .

لـه النفس »(٥٧) • فهـو هنـا قـد حـول الأفكار الى كلمـات ، ثم عـاد فحولها إلى انفعالات تتخـذ بصـورة مجسدة ـ وهـكذا لـم تغفـل أعيننـا عن شخصية صـاحب السـيرة لحظـة واحدة ؛ وذلك بخـلاف منهـج آخـر قـد يلجـأ إليـه الكاتب ، فيذكـر مثـلا : أن الوضـع فى الجزيرة العربية كـان منهـاراً بدليل كـذا • فهنـا يبعـد الكاتب عن شخصية صـاحب السـيرة ، ويقودنا إلى سجلات التـاريخ ، وفضـلا عن الأسلوب التقريرى الجاف حـدث الانفصال بين القـارىء وشخصية صـاحب السيرة ، وأصـبح الربط بين الوضـع الاجتماعى وبين أعمـال صاحب السـيرة لتغيير هـذا الوضـع ربطـاً خارجيا ليس نابعـا من الداخـل •

أمـا النمـوذج الثالث للتشكيل الجـديد فهـو « العبقريات » للعقـاد « ويذكـر العقـاد » فى تقديمه « لعبقرية محمـد » أنـه قبـل نشـر السيرة بثلاثين عـاماً ، جـرت مناقشة اشترك هـو فيهـا حـول كتـاب « كارليـل »(٥٨) وإن المتناقشين قـد أكبـروا « كارليـل » الذى أنصـف الرسـول ، واستقر رأيهم على أن الأولى بواحـد منهـم أن يكتب سـيرة محمـد • وقـد تأثـر العقـاد بمذهب كارليـل ، تأثـره بالنزعة الروحية فى تفسـير التاريخ بالشكل الذى يبـدو واضـحاً فى عبقرياته ، وهـو يذهب الى أنـه فى كتـابة سـيره يهـدف الى رد الاعتبـار للجانب الروحى الخـالد فى مقـابل لوثـة المـادة ومهانة الانكار العقيـم ، وكارليل يعـدد صفات محمد ـ ﷺ ـ فـرآه مخلصا أمينـا عزوفـاً عن السلطان ونعيمه شجاعا

---

(٥٧) المرجع السابق نفسه ص٢٩ .

(٥٨) توماس كارليل . كاتب انجليزى ، صاحب كتاب « الأبطال » الذى عقـد فيه فصـلا عن النبى محمد ﷺ وجعله نموذج البطولة بين ابطال العـالم الذين اختارهم للوصف والتدليل ، انظـر مقـدمة العبقرية ص٥ ، ٦

فى الحروب ، ولكنه يؤثر السلم على الحرب ، رحيماً حتى ليبكى على قبر صاحب أو يغفر عمن أساء إليه ، ولكن مفتاح شخصيته هو رؤية بواطن الأمور ، لا يحجب ذلك عنه حجاب والمقدمات تلقى الأضواء على منهج الكتاب ، ومن أجل هذا نتوقف أمام مقدمة « العقاد » حيث يقول : « فسيرى القارىء أن عبقرية محمد عنوان يؤدى معناه فى حدوده المقصودة ولا يتعداها ، فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف الى السير العربية والأفرنجية التى حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن ، لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها فى هذه الصفحات « إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذى يدين به كل انسان ولا يدين به المسلم وكفى »(٥٩) • معنى هذا أنه لا يكتب سيرة بالمعنى التقليدى أى أنه لا يتتبع حياة الرسول — ﷺ — من البداية الى النهاية ، ولكنه يتخذ منهجاً آخر تعترف به تشكيلات السير ، هو منهج الاختيار فى حدود الفكرة التى حددها • فالرسول عظيم فى دعوته الدينية ، عظيم فى قيادته العسكرية ، عظيم فى سياسته وإرادته ، عظيم فى أبوته ، « فعبقرية محمد » فصول مستقلة يجمعها رابط منهجى ، وتسير كلها الى هدف واضح ، وعلى الرغم من منهجية العرض ، فنحن نحس أن العقاد يكتب وهو منفصل جياش الشعور فى كل فترة • وهو يريد أن يجلو العظمة الانسانية كما يفهمها البشر فى حدود المادة الموثوق بها ، وبهذا الاستناد إلى حقائق التاريخ والاعتماد على طبائع الأشياء ، يرسم « العقاد » ارهاصات النبوة ، بلا استعانة بما هو ليس فى حاجة إليه مما يؤمن به المؤمنون عن تسليم ويتلقاه المحبون فى تعاطف ومودة ، فهو يخاطب

---

(٥٩) ص٨ ، ٩ المقدمة « لعبقرية محمد » عباس محمود العقاد .

عقـولا يتخيل فى كـل كلمـة أنهـا تناقشه وتسـأله الحسـاب ، ولا تقبـل فيـه إلا ما يسيغه العقـل ، فيروح فى حماسـة واخلاص يقيـم الدليـل والحجـة بعـد الحجـة على صـحة ما آمن بـه من رسـالة محمـد ـ ﷺ ـ حتى لتغـدوا آخـر الأمـر ضرورة حتميـة تتطلبها طبيعة الأشياء ، وتسوق الى حدوثها مجريات التاريخ • وهـكذا رسـم « العقـاد » شخصية محمـد ـ ﷺ ـ كمـا فهمها وأحسها ، وقـد امتزجت فى شخصية النبـوة والرجـولة والانسانية ، كـل منهـا كاملا غـير منقوص ، وكـل منهـا فى أجمـل مظاهـره وأكمـل نواحيه ، فغـدا مزيـج • هـذا كلـه عبقرية خالدة للنفس البشرية المتكاملة ، النفس التى ترسـم بتصرفاتها منهاجاً يحتدى(٦٠) وهـذا التشكيل هـو أقـرب التشكيلات الى الصـور الجانبية ، فالكاتب ينتقى جـوانب معينـة كلهـا تتجمع فى النهـاية وتترابط لتشكل قطـاعاً من الشخصية ، ولعـل مفتـاح الشخصية هـو مركز التجمـع ومحـور الترابط بين هـذه الجوانب وعبقرية محمـد فى ضـوء هـذا المفهوم تعتبر من السـير التحليلية ، فالعقـاد لا يقـوم بعمليـة تركيبية •• مثـل كتـاب السـيرة ، ولكنـه يحلل كـل صورة يقف عندهـا ، فمن المعروف أن الرسول ـ ﷺ ـ على سبيل المثال ـ قـاد أكثـر من معـركة حربية فـلا يجىء العقـاد هنـا فيسرد ما قيـل فى الموضوع ، ولكنـه يعمـد الى تحليل عبقرية الرسـول الحربية فيتوقف أمـام طريقته فى اختيـار المـكان أو اختيار رئيس الفـرقة وترويده بالوصـايا ، ويكشف عن خبـرته فى الاستطلاع وتجنيـده لكل قـوة فى يديـه سـواء أكانت قـوة رأى أو قـوة لسـان أو قـوة نفـوذ(٦١) •

---

(٦٠) يراجع هـذا فى كتاب « محمـد فى الأدب » ص٢٢ بتصرف : فاروق خورشيد واحمـد كمال زكى ، طبعة القاهـرة ١٩٥٩ .

(٦١) المرجـع السابق نفسه ص ٢٤ بتصرف .

وهـذا التشكيل يمنـح الكاتب حـرية أكبـر ، لأنـه يستخدم فى التحليل ثقافته العـامة وإن كانت هـذه الحـرية مقيـدة بخـدمة الموضوع ، غـير أن التشكيل الروائى أقـرب الى روح السـيرة من حيث تركيب الشخصية كـاملة .

أمـا النموذج التـالى للتشكيل الجديد فهـو بالضرورة التشكيل المسرحى مادمنـا قـد ذكرنا التشكيل الروائى ، وفى هـذا اللـون نجـد « محمـد » لتوفيق الحـكيم ، « والزيتونة » لخالد الشواف . يقـول (الحـكيم) فى مقـدمة المسرحية : ولقـد قصـد بوضـع هـذه السـيرة عـام ١٩٣٦ ، فى قالب الحوار ، المحافظة على الصور التاريخية ، والحـرص على إبرازهـا من واقـع الحـديث التاريخى نفسه ، كمـا جرت من الألسنة طبقـاً لنصوص الكتب المعتمدة(٦٢) .

ولاشـك أن اتجـاه الحكيم إلى كتـابة المسرحية وتمكنـه من أصولها وفنيتهـا هـو الذى حـدد الشـكل الذى عـالج بـه سيرة الرسول ـ ﷺ ـ . فالمقصود إذن اعـادة كتـابة السـيرة مـرة أخـرى بطريقة عصرية جـديدة ، وبشـكل أدبى لم تكتب بـه من قبـل ، وقـد نجـح الكاتب فى عـرض هـذه السيرة عرضا حوارياً ، ففيهـا من التشويق والاقنـاع ما يؤكـد ذلك ، والحكيم الفنان قـد أحس إحساسا عميقـاً بمحمد الانسان يقف ثابتـا قـويا أمـام كل الأحـداث المثبطـة المعـوقة فيتغلب عليهـا بقـوة إيمانه وجـده وصبره ، شخصية الداعيـة الصابر هـزته فعبر عنهـا . « والحكيم » الكاتب الدرامى قـد بهـره مافى المعجـزة من خصـوبة ، فعبـر عنهـا ، وهنـاك جوانب معينـة ركـز توفيق الحكيم الأضواء عليها أكثـر من غيرهـا ـ بعـد شخصية الرسول ـ مثـل أحداث الموت :

---

(٦٢) « محمـد » لتوفيق الحكيم ، المقدمة بتصرف ، طبعة القاهـرة ١٩٣٦ م .

موت عم الرسول وولده ، فالموت هز الحكيم نفسه ، كذلك العلاقة بين الرسول الانسان وبين زوجاته ، وقد وجد فى السيرة من صور البطولة ومن صور الايمان ما انفعل به(٦٣) .

وهكذا استطاع الحكيم أن يكتب سيرة ناجحة فى إطار جديد ، لبس ثوب المسرحية من حوار ومناظر وفصول ، وأن يعبر بهذا البناء عن وقفة فنان معاصر أمام الشخصية الاسلامية الأولى وإذا كان الحكيم قد كتب مسرحيته نثراً ، فان « الشواق » الشاعر قد كتب مسرحية شعرية . والواقع أن الحكيم بمقدرته كبير الفنية استطاع الامساك بالمواقف الدرامية المثيرة ، مثل موقف أبى سفيان وهو يتعجب أن ينزل الوحى على محمد ويتركه وهو كبير قريش ، ثم هو يدبر المؤامرة ضد الرسول . وموقف الرسول وهو يبكى يوم مات ولده إبراهيم ، وموقف المسلمين يبكون يوم وفاته صلوات الله عليه(٦٤) .

ولكن « الشواف » فى مسرحيته الشعرية « الزيتونة » يسير مع السيرة منذ بدأ الاسلام حتى تم فتح مكة ، وتهيأ المسلمون للخروج فى جيوش الفتح الى فارس والروم ، ونحس أننا نقرأه قصة لولا المناظر والحوار فما من موقف درامى قوى على كثرتها فى السيرة النبوية ولكنها على أية حال ، محاولة طيبة يمكن أن توجه شعر المسرح إلى مافى السيرة من مواقف كثيرة تصلح أن تقدم للناس(٦٥) .

---

(٦٣) يراجع هذا فى ص٢٠٩ ، المنظر الرابع عشر ، ص٢٧٠ المنظر الثامن عشر ، ص٢٦٦ المنظر السادس عشر .

(٦٤) يراجع « محمد » لتوفيق الحكيم ، المنظر السابع من الخاتمة ص٣٠٠ .

(٦٥) يراجع « الزيتونة » خالد الشواف : طبعة بيروت ١٩٦٦ م.

بقيت ملاحظة أخيرة يمكن أن يختتم بها البحث ، فكما رأينا شعراء المهجر المسيحيين يحتفلون فى كثير من قصائدهم بذكرى مولد محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ نرى أيضاً بعض الكتاب من العرب المسيحيين يتناولون سيرته مثل « نظمى لوقا »(٦٦) فى كتابيه « محمد الرسالة والرسول » و « محمد فى حياته الخاصة »(٦٧) ، و « نصرى سلهب » فى كتابه « فى خطى محمد » ، و « نظمى لوقا » فى مقدمة كتابه الأول يذكر شيخ القرية أقرأه القرآن الكريم على عادة الصبية فى القرية ، ومن هذا المنطلق بدأ يحفظ القرآن . ويعجب بالرسول ـ ﷺ ـ وقد ترجم إعجابه بطريقة علمية فألف كتابه عن الرسول ـ ﷺ ـ والحقيقة أن الكتاب فيه كثير من الاعجاب والحب وإن كان فى كتاب « نصرى سلهب » كثير من الفن فى طريقة العرض ، وهذه الكتب تضيف مذاقاً جديداً ورؤية خاصة .

وهكذا يتضح فى النهاية أن حياة الرسول ـ ﷺ ـ ظلت نبعاً يتدفق بالعطاء على مدى السنين ، وقد أثرت فى الأدب العربى الحديث شعره ونثره بقدرها أثرت به فى أدب التراث ، غير أن الأدب العربى الحديث أكثر ثراء فى التناول وأشد تفنناً وإن كان جهود السابقين فى الجمع والاستقصاء والفحص أكبر بكثير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

---

(٦٦) يراجع « محمد الرسالة والرسول » نظمى لوقا القاهرة ١٩٥٨

(٦٧) يراجع « فى خطى محمد » نصرى سلهب ، بيروت ١٩٧١ .

أهـــم مراجـــع البحـــث

أولا ــ الشـــعر :

١ ــ أنت الريـــاض — غـــازى القصيبى
القاهـــرة ١٩٧٧ .

٢ ــ أنشـــودة المطـــر — بدر شاكر السياب
بـــيروت ١٩٦٠ .

٣ ــ الأيوبيـــات — رشـــيد أيـــوب
نيويورك ١٩١٦ .

٤ ــ حتى يعـــود شعبنا — هارون هاشم رشـــيد
بـــيروت ١٩٦٦ .

٥ ــ خيـــالات — رياض المعـــلوف
البرازيل ١٩٤٥ .

٦ ــ ديوان أبى الفضـــل الوليد
بـــيروت ١٩٧٢ .

٧ ــ ديوان أحمـــد محـــرم
مطبعة الفتوح الجديدة بدمنهور ١٩٢٠ .

٨ ــ ديوان بدوى الجبـــل — محمد سليمان الأحمـــد
بـــيروت ١٩٨ .

٩ ــ ديوان البوصـــيرى — محمد سيد كيـــلانى
الخليج بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٣ .

١٠ــ ديوان شـــوقى — أحمـــد محمد الحوفى
دار النهضة بالقاهرة ١٩٨٠ .

١١ــ ديوان القـــروى رشيد سليم الخورى
البرازيل ١٩٥٢ .
١٢ــ ديوان نـداء الحـق أحمـد محمد الصديق
الدوحـة ١٩٧٧ .
١٣ــ كشف الغمـة فى مدح سيد الأمـة البـــارودى
القاهـرة ١٩٢٧ .
١٤ــ من أغـانى البحـرين أحمـد محمد الخليفة
بـيروت ١٩٥٥ .
١٥ــ نـار وأصـفاد محمود حسن اسماعيل
القاهـرة ١٩٥٩ .
١٦ــ هجـير وسـراب أحمـد محمد الخليفة
بـيروت ١٩٦٢ .

ثانيـاً ــ النثـــر :

١٧ــ التجـديد فى شعر المهجـر محمد مصطفى هـدارة
القاهـرة ١٩٥٧ .
١٨ــ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر محمد محمد حسين
القاهـرة ١٩٥٦ .
١٩ــ جـريدة المؤيـد عـلى يوسـف
القاهـرة ١٩٠٧ .
٢٠ــ حيـاة محمـد محمد حسين هيـكل
دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السادسة .
٢١ــ الرســـولُ سـعيد حـوى
القاهـرة ــ مكتبة وهبـة .

٢٢ــ عبقرية محمد — عباس محمود العقاد
القاهرة ــ دار الهلال .

٢٣ــ على هامش السيرة — طه حسين
القاهرة ١٩٣٣ .

٢٤ــ فى منزل الوحى — محمد حسين هيكل
دار المعارف ، الطبعة الخامسة ١٩٧١ .

٢٥ــ قصة الأدب الهجرى — محمد عبد المنعم خفاجى
دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٩٧٤ .

٢٦ــ مجلة الأزهر
القاهرة ١٩٧٩ .

٢٧ــ محمد — توفيق الحكيم
القاهرة ١٩٣٦ .

٢٨ــ محمد الرسالة والرسول — نظمى لوقا
القاهرة ١٩٥٨ .

٢٩ــ محمد فى الأدب — فاروق خورشيد وأحمد كمال زكى
القاهرة ١٩٥٩ .

٣٠ــ محمد رسول الحرية — عبد الرحمن الشرقاوى
القاهرة ١٩٦٧ .

٣١ــ محمد نظرة عصرية — أحمد شلبى
دار الهلال ــ القاهرة .

٣٢ــ المدائح النبوية فى الأدب العربى — زكى مبارك
دار الشعب ــ القاهرة .

٣٣ــ من أدبنا المعاصر — مصطفى محمود يونس
القاهرة ١٩٨٤ .